الفصل الخامس

أسس البناء العلمي والثقافي وبعض القيم والقضايا ذات الصلة

- أولاً: أسس البناء العلمي والثقافي.
- ثانياً: القيم والقضايا ذات الصلة.

obeikan.com

obeikan.com

❖ أولاً: أسس البناء العلمي والثقافي.

تقوى السياسة وتزدهر بالعلم وينتعش العلم والثقافة بالقرار السياسي الرشيد ، وهذا يتطلب رسوخ بعض الأسس العلمية/الثقافية في ذهن الحاكم والعلماء والشعب ، والتربية القائمة على هذا البناء ، **ومن تلك الأسس ما يلي:**

1- الانتفاع بالعلم والمعرفة واقتراف آدابهما وتحمل عنائهما:

وفي هذا الشأن يطالعنا الكتاب بأهمية أن يمتلك الإنسان القدرة على التفكير السليم في مشوار العلم وأن يتحلى بالآناة لفهم ما يتعلمه والانتفاع به وما فيه من آداب وعظات ، وتحمل عناء تحصيله والانتفاع به وليس مجرد حيازة العلم للعلم فقط. وهذا الأمر على درجة كبيرة من الأهمية خاصة في العصر الراهن الذي يتسم بالانفجار المعرفي والتطور الهائل في التكنولوجيا حيث يحتاج فيه الإنسان إلى التحلي بالأخلاق والوعي النقدي حتى يحسن استخدامهما وتوظيفهما في تحقيق تقدمه وليس دمار الحياة والكون. ففي باب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع يقول في قصة الرجل والكنز ليعبر عن العلم والانتفاع به وفضائل ارتباط العلم بالأدب والأخلاق (باب عرض الكتاب لابن المقفع ، 1986 ، 5-6):

يقول: "إن الأدب يجلو العقل كما يجلو الودك النار ويزيدها ضوءا. والأدب يرفع صاحبه كما ترفع الكرة يضربها الرجل الشديد. والعلم ينجي من استعمله .."

ويرى الكتاب في هذا الأمر أنه إذا لم يوظف الإنسان ما تعلمه في تيسير أمور الحياة والتفاعل معها أنه لا فرق بينه وبين الجاهل الذي لم يعي هذا العلم وهذا أمر غاية في الأهمية ويرتبط في حياتنا المعاصرة بآفة فصل ما نتعلمه على المستوى النظري عن تطبيق وتنفيذ ذلك في الواقع والإفادة منه. والذي يعني الوقوف

في منتصف الطريق دون إنجاز ولا انتفاع مما تعلمناه. فيكون العالم كالجاهل يعلم ولا يعمل بما علم. ويطالعنا الكتاب عن هذا الموقف ومساوئ عدم توظيف ما تعلمناه إلى أعمال **كما يلي** (باب عرض الكتاب لابن المقفع ، 1986 ، 6-8):

"العلم لا يتم لامرئ إلا بالعمل. والعلم هو الشجرة ، والعمل هو الثمرة. وإنما يطلب الرجل العلم لينتفع به... ومن كان يطلب العلم ليعلمه غيره وليعرفه سواه ، فإنما هو بمنزلة العين التي ينتفع الإنسان بمائها وليس لها من تلك المنفعة شئ. فإن خلالا ثلاثا ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتبسها: منها العلم ، ومنها المال ، ومنها اتخاذ المعروف ".

ما سبق يعني أيضا أنه على الإنسان أن يبدأ بنفسه فيما يقدم من نفع وفهم ووعي بالأمور وانتفاع مما تعلم فلا ينسى نفسه ويتجه مباشرة للغير.

2- **محاولة الوصول إلى لُباب العلم دون الوقوف عند القشور**:

إن الانتفاع بالعلم لا يتحقق إلا بانتهاج المنهج العلمي السليم ودراسة الظواهر وسبر غورها للوعي بها والوصول إلى أقصى درجة من الإفادة من دراستها للإنسان. ومن ثم فدراسة الظواهر تتطلب الدقة والعمق والإحكام (كليلة ودمنة ، 1986 ، 5):

"فليس ينبغي أن يجاوز شيئاً إلى غيره حتي يحكمه ويثبت فيه وفي قراءته وإحكامه. فعليه بالفهم لما يقرأ والمعرفة حتي يضع كل شئ موضعه وينسبه إلى معناه... كما أن رجلا لو أتى بجوز صحاح في قشورة لم ينتفع به حتى يستخرج ما فيه. فعليه أن يعلم أن له خبيئا وأن يلتمس علم ذلك".

3- ضرورة أن يحدد الإنسان غاياته ويتجه صوبها بمنهجية علمية:

يسهم تحديد الغايات والأهداف من أي عمل يقوم به الإنسان في إنجاز هذا العمل بنجاح... وتجاوز الفوضى والعشوائية فيه. ويطالعنا ابن المقفع في كتابه أن الإنسان لا ينبغي له القيام بأي عمل دون أن يكون على وعي بالغاية التي من أجلها يقوم بهذا العمل وإلا أصابه ما لم يكن يبغي. **فيقول في هذا الشأن** (كليلة ودمنة ، 1986 ، 9):

"ينبغي لمن طلب أمرا أن تكون له غاية ينتهي إليها ، فإنه من أجرى إلى غاية أوشك أن يكون فيه عناؤه وتقوم فيه دابته".

لكن في كثير من الأحيان قد يحدد الإنسان غاياته ، وفي طريق إنجاز هذه الغايات قد يصل إلى غايات أخرى دون أن يطلبها. وقد اتضح ذلك في مسار البحث العلمي عبر التاريخ ، فقد اكتشف كثير من العلماء كشوفات عظيمة (لم تكن ضمن غاياتهم) أثناء بحوثهم وهذا يعني أن الإنسان عليه أولا تحديد غايات عمله ثم يبحث ويجد ويجتهد وما يصل إليه من تحقيق لأهداف واكتشاف لأمور أخرى لم تكن في حساباته أمر يتعلق بالفضل والرزق الذي يصيب الإنسان من عند الله سبحانه وتعالى بغير طلب.

4- الصبر على العلم والمعرفة وبذل الجهد دون يأس في لبهما:

يدعونا الكتاب إلى الأناة والصبر في طلب العلم والتزود بالمعرفة ، وعدم طلب أمر ما وإصابته إلا على معرفة به وما سيقدمه للإنسان من منافع. **يقول ابن المقفع في هذا الشأن** (باب عرض الكتاب لابن المقفع ، 1986 ، 10):

"فليس ينبغي لأحد أن ييأس ولا يطلب ما لا ينال ، ولكن لا يدع جهد في الطلب على معرفة ، فإن الفضل والرزق يأتيان من لا يطلبهما ، ولكن إذا نظر في ذلك وجد من طلب وأصاب أكثر ممن أصاب بغير طلب... ولكن يقتدي بالكثير الذين طلبوا فأصابوا".

5- الاهتداء والاقتداء بتجارب الذات السابقة وتجارب الآخر:

إن العلم في أحد خصائصه تراكمي يفيد حاضره من ماضيه رغم حدوث قفزات وطفرات في بعض الأحيان. فالإطلاع على تجربة الغير تحقق استفادة عظيمة لتلافي السلبيات والمخاطر، وتوظيف الإيجابيات في التجارب الراهنة والذي يقود إلى التطور في أي عمل خاصة العمل العلمي. ومن لم يفعل فكأنما يحذف تاريخ العلم ويبدأ من جديد فيبذل الجهد والمال والوقت فيما لا يفيد ، بل قد تصيبه عديد من المخاطر. **وفي هذا الأمر يقول ابن المقفع** (باب عرض الكتاب لابن المقفع ، 1986 ، 10-11):

"وحق على المرء أن يكثر المقايسة ، وينتفع بالتجارب... فإنه إن لم يحذر إلا الذي لقي بعينه لم يحكم التجارب في جميع عمره ، ... وينبغي له مع ذلك أن يحذر ما يصيب غيره من الضرر حتى يسلم من أن يأتيه مثله ... وقد قيل في أمور شتى من كانت فيه لم يستقم أمر له: منها التواني في العمل ، ومنها التضييع للفرص ، ومنها التصديق لكل مخبر".

6- قناعة الإنسان خاصة العلماء وترفعهم عن جمع المال بما هو أعظم وأبقى:

العالم الحقيقي هو الذي يشغله علمه وعمله في المقام الأول ولا يثنيه المال عن ذلك ، ولا يكون هدفه الأول فيما يعمل. وإذا كان الأمر بهذا المنحى غالبا يأتي العمل ناجحا وتنجز المهام على أكمل وجه ، مع الصبر والمثابرة وحسن تدبير الأمور وصدق الغاية.

وتطالعنا قصة إرسال الملك "أنوشروان" للطبيب العالم "برزويه" بأمر كهذا (كليلة ودمنة ، 1986 ، 23):

"ثم إن الملك أمر بأن تفتح خزائن الذهب والفضة لبرزويه ، وأمره أن يأخذ منها ما أحب. فقال لا حاجة لي إلى شئ من ذلك. لكني أريد أن أسأل الملك حاجة يسيره يكون قضائها ذكر وفخر... أن يضع لي في رأس هذا الكتاب بابا باسمي ، وينسب إليه شأني وفعلى ليكون لمن بعدي عبرة وتأديبا".

7- حسن اختيار العمل العلمي لنوخي الإنجاز فيه:

إن إنجاز العالم/الإنسان في عمل ما يتوقف إلى حد كبير لحبه لهذا العمل وبذل الجهد فيه ، ومن ثم فإن اختيار العالم لتخصصه أو أي إنسان للعمل الذي يمتهنه عامل مهم لتقدمه في هذا العمل وحسن الإنجاز فيه. **ويطالعنا رأس أطباء فارس (برزويه) بذلك فيقول** (كليلة ودمنة ، 1986 ، 25-26):

"فلما بلغت وعرفت أم الطب وفضله ، ... ورغبت في تعلمه ، حتي إذا شدوت منه علما ، وبلغت فيه ما أمنت له نفسي على مداواة المرض وهممت بذلك ، ... فوجدت الطب محمودا عند العقلاء ، ولم أجده مذموما عند أحد من أهل الأديان والملك... فرأيت أن أواظب عليه أبتغي ذلك ، ولا ألتمس له ثمنا".

وتنمي التربية قيمة حسن الاختيار وحريته عند الفرد ، ويرتبط ذلك بالتخطيط وتحديد الأهداف ، وما يرتبط بالتربية باعتبارها عملية مستقبلية ، وعمل مستمر.

8- تقصي الحقيقة بوعي وتعقل وتوخي "العدل الذي يرضى عنه العقل":

تستطيع التربية العلمية تكوين الفرد علميا من خلال تمكينه من عدة أسس منها أن يتجه سعيه في العلم بحثا عن الحقيقة مستعينا بما قدمه في هذا البحث لإزالة الالتباس والزيف. وهذا يتطلب أن يكون الإنسان على وعي ودراية بما يعمل ويبحث وعلى وعي بما يستخدم من أدوات ومعرفة وغيرها للوصول إلى الحقائق. وفي هذا يقول الطبيب "برزويه" أن الإتباع بغير علم خديعة للنفس ومن أراد اليقين من خلال البحث والتقصي... يجب أن يستشعر عدلا يرضى عنه العقل. وفى ذلك يقدم الكتاب قصة اللصوص الذين خدعهم صاحب البيت الذي أرادوا سرقته فأوقعهم حيث خدعهم فصدقوه واتبعوه دون عقل ودون وعي ، **كما يقدم الكتاب كيف يكون تقصي الحقيقة وكيف يكون العدل الذي لا يرضى عنه العقل** (كليلة ودمنة ، 1986 ، 30) **كما يلي**:

"...فرأيت أن أراجع علماء أهل كل مله ، وأناظرهم فأنظر فيما يصنعون ، لعلي أعرف بذلك الحق من الباطل فأختاره وألزمه على ثقة ويقين ، غير مصدق بما لا أعرف، ولا تابع ما لا يبلغه عقلي. ففعلت ذلك وسألت ونظرت فلم أجد أحدا من الأوائل يزيد على مدح دينه ، وذم ما يخالفه من الأديان. فاستبان لي أنهم بالهوى يجيبون ويتكلمون ، لا بالعدل. ولم أجد عند أحد منهم صفة تكون عدلا يعرفها ذو العقل ويرضى بها. فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلا ، وعرفت أني ، إن أوافقه على ما لا أعلم ، أكن كالمصدق المخدوع...".

9- ألا يدعي الإنسان العلم فيما لا يعلم:

إن الكلمة مسئولية عظيمة ، وعندما تخرج الكلمة فلا تعود مرة أخرى والكلام بغير علم جهل ، وجزاء الجهل من جنس العمل ، لا ينفع معه الحيلة والتأثير على الموقف.

وفي مشهد من محاكمة دمنة أمام الملك (الأسد) أراد ابن المقفع أن يصل بنا إلى المضمون السابق حينما **قال على لسان دمنة ما يلي** (كليلة ودمنة ، 1986 ، 114-115):

"وأعلموا أن من قال ما لم ير ، وأدعى علم ما لم يعلم أصابه ما أصاب الطبيب الجاهل المتكلف... فأدعى أنه عارف بالأدوية وأخلاطها... فسقى الجارية منه فلم تلبث أن تقطع أمعاؤها فماتت. وأمر أبوها فسقى الطبيب من الذي صنع لها من الأدوية فهلك... فإن العلماء قد قالوا: إنما جزاء كل أحد بقوله وفعله... فإن العلماء لم يدعوا شيئا من آيات الأشرار والأخيار إلا قد أثبتوه"

10- تعظيم شأن العقل بإعماله والاحتكام إليه والبعد عن الهوى:

تنهض الأمم بالفكر الرصين الذي يقترن بالتطبيق في شتى مناحي الحياة ولما كان الأمر كذلك فإن العقل هو مفتاح هذا الفكر بقدراته المتنوعة. وقد تشكل هذا العقل في إطار ثقافي سمح له بهذا البناء والتوظيف للقدرات من خلال تربية واعية وقادرة على وضع الأسس وتشييد الأبنية. حتى لنفرق بين العاقل والجاهل كالفرق بين البصير والأعمى. فإذا كان للثاني عذرا على الخطأ فإن الأول ليس له ذلك ، **فيقول ابن المقفع** (باب عرض الكتاب لابن المقفع ، 1986 ، 7):

"فأقل الناس عذرا في ترك الأعمال الحسنة من قد عرف فضلها وحسن مائدتها وما فيها من المنفعة. وليس يعذره أحد على الخطأ ، كما أنه لو أن رجلين ، أحدهما أعمى والآخر بصير ، وقعا في جب فهلكا جميعا ولم ينج البصير من الهلكة ـ لأنه صار والأعمى في الجب بمنزلة واحدة ـ لكان البصير عند العقلاء أقل عذرا من الأعمى".

ويمكن النظر لهذا الأساس في نقطتين أساسيتين:

أ. تقدير قيمة العقل:

منّ الله على الإنسان بالعقل وفضله به على سائر المخلوقات ، وتمكن من خلاله الإنسان من سبر غور الظواهر وتعرف وتفهم ذاته وتعرف وحدانية الخالق وتنوع مخلوقاته والغاية من خلقه. فالعقل قوة لا تضاهي إذا أحسن الإنسان تقديره وإعماله أصلح حاله واستقامت أموره بإذن الله. والتربية العقلية أحد أهم أنماط التربية ، ومسئوليتها تشكيل عقل الإنسان الحر المبدع في إطار ثقافة المجتمع ، مع الانفتاح على الجديد والجيد من الثقافات. وفي ذلك يطالعنا الكتاب في باب توجيه "كسرى أنوشروان " "برزويه "إلى بلاد الهند **لطلب هذا الكتاب بما يلي** (كليلة ودمنة ، 1986 ، 13-14):

"... أفضل ما رزقهم الله ومنّ عليهم به العقل ، فما يقدر أحد من الخلق على إصلاح معيشة ، ولا إجترار منفعة ، ولا دفع مضرة إلا به ، فالعقل سبب لكل خير ".

ب. التعقل والتبصر بالأمور:

ويطالعنا ابن المقفع في الباب الأول من الكتاب ببعض السمات التي لا تنبغي إلا لعاقل راجح عقله متيقنا من فعله... وهذا مما يسهم في البناء العقلي للإنسان الصحيح **فيقول** (باب عرض الكتاب لابن المقفع ، 1986 ، 11-12):

"فالعاقل لا يزال للهوى متهما. وينبغي له ألا يقبل من أحد ، وإن كان صدوقا ، إلا صدقا. وينبغي له ، إذا التبس عليه أمر ، ألا يلج في شئ منه ، ولا يقدم عليه قبل أن يستيقن بالصواب منه... وعلى العاقل ألا يأخذ إلا بالحزم ، ويعلم أن الجزاء كائن".

11- **ضرورة اقتران العقل بالأدب:**

ينظر للعقل على أنه قاطرة لكل مكونات الإنسان ومقوماته فهو مميز للأشياء وقوة دافعة للتشكل الثقافي من علوم وآداب وفنون وغيرها. وبالعقل يتميز الناس عن بعضهم وتزدهر ملوك عن ملوك ، وبه يرفع الإنسان إلى المقامات الرفيعة... **وفي ذلك نرى ما قدمه كتاب كليلة ودمنة في باب توجيه كسرى أنوشروان.. كما يلي** (كليلة ودمنة ، 1986 ، 14):

"... فإذا استحكم (العقل) كان هو ولي التجارب والمقوي لكل أدب ، والمميز لجميع الأشياء ، والدافع لكل ضر. فلا شئ أفضل من العقل والأدب. فمن من عليه خالقه بالعقل ، وأعانه هو على نفسه بالمثابرة على الأدب والحرص عليه سعد جده وأدرك أمله في الدنيا والآخرة".

12- **استلهام الصواب والحزم على الفعل:**

عندما يصل الإنسان إلى الرأي الصائب ويطمئن إليه مستندا في ذلك لمنطق أو حجة أو إلهام فليعزم على الفعل ولا يتردد ، فقد يخسر الكثير بتردده. **وفي هذا الشأن يحكي "برزويه" في قصة بحثه عن الأديان والتقصي حول الملك كما يلي** (كليلة ودمنة ، 1986 ، 33):

"... فلما خفت التردد والتحول رأيت ألا أتعرض لهما ، وأن أقتصر على كل شيء تشهد العقول أنه بر ، ويتفق عليه كل أهل الأديان. فكففت يدي عن الضرب والقتل والسرقة والخيانة ، ونفسي عن الغضب...".

13- استلهام الحكمة من العلم والثقافة والشفاء والمحن في رحلة بناء الإنسان:

إن التعقل والحيطة والتفكر والاستزادة من المعرفة تتحقق بالحكمة. وفي هذا الأساس يحتاج الإنسان إلى الوعي بحقيقته وحال الدنيا ومخلوقاتها فيبدأ بالشك والحيرة والتردد وما يمكن أن يجول بخاطره حول تلك الأمور، ليصل في النهاية إلى اليقين. وفي تلك الرحلة والمحاورة التي يجريها الإنسان يكون موضوعها الأساسي (الدنيا أم النسك والعمل للآخرة). ويقود الإنسان إلى التسليم بأمر الآخرة وما تستدعيه من حسن الخلق والاهتداء بالفضائل والتزود بالعلم والمعرفة وحسن التعامل مع مصاعب الحياة، ورحلة سعي الإنسان وشقائه منذ ميلاده حتى الممات إنها رحلة تربية، في الاستزادة من المعرفة والوعي والتعقل والتفكر والتريث، واكتساب القيم والأخلاق والفضائل **فيقول "برزويه"** (كليلة ودمنة، 1986، 40، 169):

"فلما فكرت في أمر الدنيا وعلمت أن هذا الإنسان هو أشرف الخلق وأفضله فيها، ثم هو على منزلته، لا يتقلب إلا في شر ولا يوصف إلا به، علمت أنه ليس من أحد له أدنى عقل يفهم هذا ثم لا يحتاط لنفسه ولا يعمل لنجاتها ويلتمس الخلاص لها إلا وهو ضعيف الرأي قليل المعرفة بما عليه وله". وأيضا "...الرجل العاقل إذا نابه الأمر الفظيع الذى يخاف فيه الهلكة الجائحة على نفسه وقومه، لم يجد بدا من احتمال الضيق، ولم يجزع من شدة الصبر لما يرجو.. من روح العاقبة "

14- **الصدق مع الذات والوعي بها في القول والعمل ثم الرضي بالحال بعد السعي:**

تقوم التربية ببناء الإنسان ليعي ذاته وإمكاناته في إطار فرد/اجتماعي ، فلا يكون إلا نفسه ولا يعمل إلا في صنعته (ما يعي ويعلم) غير متكلفا ، فيصدق عمله وقوله وهذا الوعي يعتبر تعقلا وحكمة يبتغيها الإنسان العاقل فلا يشقى بما يقول وما يصنع. وفي ذلك يطلعنا ابن المقفع على أمر دمنة وكليلة ، حيث كانا يتحاورا فينصح كليلة أخاه دمنة بألا يحتال من أجل التقرب إلى الملك ، وأن يرضى بحاله **كما يلي** (كليلة ودمنة ، 1986 ، 46):

"... اعلم أنه من تكلف من القول والعمل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القرد..."قال كليلة: زعموا أن قردا رأى نجارا يشق خشبة على وتدين راكبا عليها كالأسوار على الفرس ، وكلما شق منها ذراعا أدخل فيه وتدا ، وأن النجار قام لبعض شأنه ، فانطلق القرد يتكلف من ذلك ما ليس من صناعته ، ....فلما نزع الوتد انضمت الخشبة على خصيتيه ، فخر مغشيا عليه..".

15- **الحذر من خداع أهل السوء من التعقل والحكمة:**

من التعقل أن يتقي الإنسان ويحذر أهل السوء وسيئ أعمالهم ، والوعي بما يقومون ويظهرون من المظاهر الجميلة تخفي ورائها الخدع والحيل والمكر السيئ. مما يدعو كل ذي عقل اتقاء ذلك والكشف عن زيف أعمالهم.

وفي ذلك يطالعنا المؤلف بقوله (كليلة ودمنة ، 1986 ، 97):

"من الأعاجيب والعبر لذوي الألباب ، في الاتقاء والحذر لأهل النميمة والوهس ، والنظر فيما يزوقون من خديعتهم ومكرهم وسعايتهم. وذوو العقول أحق أن

يتقوا كذب أولئك ويتجنوا عقبهم ، ويفحصوا عن هذه الأشياء منهم ، ثم لا يقدموا على شيء من أقاويلهم إلا عن تثبت وضياء ونور".

❖ ثانيا: القيم والقضايا ذات الصلة.

تأسيساً على ما سبق فقد طرح الكتاب بعض القضايا المتعلقة بالعلم والمعرفة ، التي تستوجب في عالمنا العربي ضرورة الاهتمام بالبحث العلمي والقائمين عليه. ومن تلك القضايا عرض لقضية "الفقر والغنى والمال والعلم" وانتهى إلى أن المال ليس سوى أداة من أدوات القوة والإكرام والسلطة ، فيكرم الإنسان بالمرؤة ، وبالعمل بما يعلم. وأن قهر الاغتراب أداة للقوة كما أن العلم قوة واستعماله تقوي به (كليلة ودمنة ، 1986 ، 141):

"...استعمل علمك ، ولا تحزن لقلة مالك ؛ فإن ذا المرؤة قد يكرم على غير مال، كالأسد الذي يهاب وإن كان رابضا ؛ والغني الذي لا مرؤة له يهان وإن كثر ماله ، كالكلب الذي يهان وإن طوق وخلخل. ولا تكبرن في نفسك اغترابك ؛ فإن العاقل لا غربة عليه ولا وحشة ولا يتغرب إلا ومعه ما يكتفي به من علمه ومروءته".

وهناك أيضا بعض القيم والأخلاقيات والحكم المرتبطة بالبناء العلمي/الثقافي في الكتاب من أهمها:

التفكير السليم ، حسن الانتفاع بالعلم واقترانه بالعمل ، الوعي في إعمال العقل ، التنبؤ بفضل العلم ، تحديد الإنسان لغاياته في الحياة ، الاهتداء بتجارب الآخرين ، بذل الجهد في طلب العلم والمعرفة ،لا يغلب العقل والقوة والجمال والاجتهاد ، إلا القضاء والقدر ، نبذ الجهالة والسفه.